-2- حدود الفصاحة:

اتفق العلماء على أن القرآن الكريم في أعلى درجات الفصاحة، وجعلوه المرجع الأول فيها، وقاسوا كل كلام عليه، فما وافقه قبلوه، وما خالفه ردّوه، ولذلك عدّوا لغة قريش أفصح اللغات، لأن القرآن الكريم نزل بها، ولأنها لغة النبيّ (ص) والصحابة، والسواد الأعظم من الرعيل الأول. ولما نظروا في بقية اللغات وضعوا لهَا شروطا في الزمان والمكان لتحقيق شروط الفصاحة، ورأوا أن هناك مناطق أفصح من مناطق، وأزمانا أولى من أزمان في الاحتجاج.

لقد اعتمد علماء العربية مقياسين لضبط المدوّنة اللغويّة: مقياس للزمان وآخر للمكان – واللّغة تتأثر بالزمان والمكان – فحدّدوا الفترة الزمنية التي يحتج بلغتها بثلاثة قرون: منها 150 سنة قبل الإسلام، و150 سنة بعده. وقال الأصمعـــــي(ت216هـ) في هذا الشأن: خُتم الشعر بإبراهيم بن هرمة (توفي 176 هـ) وهو معاصر لسيبويه (180هـ).وربّما كان انقضاء أجل سيبويه هو الذي جعل الشاهد الشعري يقف عند هذا الشاعر.

إن ما يُعدّ حجة في اللغة يتوقف على نصوص الأدب الجاهلي والمخضرم والإسلامي والأموي، ويخرج من دائرة الاستشهاد ما كان عباسيا وما كان مولدا، وما جاء بعد هذه العصور، فلا احتجاج بشعر ابن الرومي (272هـ) ولا البحتري (284هـ) ولا المتنبّي(354هـ) ولا أبي فراس الحمداني (357هـ) ولا المعري (449هـ)...

والحقيقة أن هذا الشرط بقي نظريا، فقد استشهد النحاة بشعـر الزّبـاء(ملكة تدمر، ت 358 ق.هـ) وجذيمة الأبرش(ت 356 ق.هـ) وأعصر بن سعد[1]، وهم قد عاشوا في القرن الرابع قبل الهجرة. وهو شعر مشكوك في نسبته. كما احتجوا

[1] ينظر الكتاب 3/ 518 والمقتضب 13/2.

بشعر عمارة بن عقيل(229هـ) وأبي عبد الله الشجري، وقد عاشا بعد القرن الثاني الهجري. واحتجّ الزمخشري بشعر أبي تمام(ت 231هـ) وجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، فهو حجة في الرواية، ولذلك يكون حجة في القول.[2]

وقد ردّ أبو حيان (ت 745هـ) عليه بقوله:«وكيف يستشهد بكلام من هو مولّد، وقد صنّف الناس فيما وقع له من اللحن في شعره».[3]

وهكذا، لم يكن الاتفاق واضحا بين النحاة في ضبط الشاهد الشعري لا في حدوده الزمانية ولا في شروط روايته، فقد كان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (117هـ) يطعن في بعض شعر العرب، وكذلك تلميذه عيسى بن عمر (149هـ)، الذي كان يخطّئ النابغة الذبياني (توفي 604م) في قوله:

فبتُّ كأنّي ساورَتني ضئيلةٌ ❁ من الرّقش، في أنيابها السمُّ ناقعُ

وذهب إلى أنَّ الصّواب لو قال:(ناقعًا).

وكذلك ينسبُ الخطأ إلى الفرزدق التميمي (ت 110هـ)[4] في قوله:

وعَضّ زَمانٍ يا ابن مروانَ لم يدع من المال إلاّ مُسحتًا أو مجلفُ

والعطف على المنصوب يقتضي أن يكون المعطوف منصوبا (أي مجلفا).

وكذلك كان يفعل المبرد(285ه) والفارسي(337ه) وابن جني (392ه) وغيرهم من النحاة.

ولقد تشدّد بعض العلماء في رفض الشعر المجهول القائل كالمازني (236هـ) والمبرد (285هـ) والزجاج (316هـ) وغيرهم.

---

[2] ينظر الكشاف 220/1.

[3] البحر المحيط 90/1 ، 91.

[4] الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص32، وأبو الطيب ، مراتب النحويين، ص31،30. والسيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص44.

لقد وُجد في كتاب سيبويه (50) خمسون بيتا مجهول القائل، فإذا رُفض كل مجهول قائلهُ، رفض خمسون قاعدة في كتاب سيبويه، ولم يقل بهذا أحد من اللغويين، ولا تجرّأ أحد على تخطئة إمام النحاة، ما عدا ما كان من المبرد في قول امرئ القيس:

فاليومَ أشربْ غير مُستَحقبٍ ❁ إثما من اللهِ ولا وَاغلِ

لقد قرأ حمزة بكسر ياء المتكلم في لفظ (بمصرخيّ) من قوله تعالى﴿**وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢**﴾**إبراهيم.** وهي قراءة سبعيّة، واستشهد الفراء (ت207هـ) لصواب كسر ياء المتكلم ببيت شعر:

قال لها: هل لكِ يا تا فِيّ ❁ قالت لهُ : ما أنتَ بالمرضيّ[5]

وأجازها أبو عمرو بن العلاء (154هـ). وخطّأها كثير من النحاة منهم الأخفش[6] (205 هـ) والزجاج (316 هـ) والنحاس[7] (338 هـ) والزمخشري[8] (538 هـ) قال: « وهي لغة ضعيفة، والبيت مجهول قائله».

---

[5] معاني القرآن 75/2 قال المبرد : لو صليت خلف إمام يقرأ بكسر الياء في (مصرخي)لأخذت نعلي ومضيت.الكامل 155/6.

[6] معاني القرآن 599/2.

[7] إعراب القرآن 369/2،368.

[8] الكشاف 118/3.

إن هذا البيت منسوب إلى الأغلب بن عمرو العجلي (استشهـــد في غزوة نهاوند سنة 20هـ)، إذن ليس بمجهول. وما كان مجهولا عند قوم، فهو معلوم عند آخرين، وهذه اللغة باقية في أفواه كثير من الناس إلى اليوم في نواحي الشام، يقول قائلهم : ما فِّي أفعل كذا .

ونصَّ قطرب (206هـ) على أنها لغة في بني يربوع (من تميم)، وقال أبو عمرو بن العلاء: هي من اتّباع حركة الياء لما قبلها. وقد رَوَى بيت النابغة:

عليّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمةٍ ❁ لوالدهِ ليست بذاتِ عقاربِ[9]

وبالنسبة لحدود المكان فقد نظر اللغويون إليه على أساس مبدأ التأثير والتأثّر أو التغيير، فكانت البوادي ومعاييرها ، والحضر وحدودها ، فلا بدّ لأهل الوبر أن يحافظوا على انعزالهم، ولا بدّ لأهل المدر الفصحاء ألا يخالطُوا غيرهم ، وفي هذا المجال يقول ابن جني (392هـ): « لو عُلم أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوَجَبَ الأخذُ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر»[10].

لقد قرّر اللغويون أنّ أفصح اللغات ما كانت أبعد عن أماكن التأثّر أي التي لم تخالط غيرها، لذلك رفضت لغات القبائل العربية التي سكنت تخوم شبه الجزيرة العربية، وشغفوا بالأعراب المنتمين إلى قبائل الوسط (تهامة والحجاز ونجد)، وهي القبائل التي حددّها الفارابي، ونقل نصّه السيوطي(911هـ): «كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عمّا في النفس، والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: **قيس وتميم وأسد**، فإنَّ هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب

---

9 البحر المحيط 419/5 والدر اللقيط ، ص413.

10 الخصائص 5/1.

والتصريف، ثم **هذيل** وبعض **كنانة** وبعض **الطّائيين**، ولم يؤخذ عن غيرهم، من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنَّهُ لم يؤخذ عن حضريّ قط، ولا عن سكان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين من حولهم .فانه لم يؤخذ من لَخمٍ و لا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط و لا من قُضاعة ولا من غَسَّان وإيَاد لمجاورتهم أهل الشّام وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربيّة، ولا من تَغلب والنَّمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان. ولا من بَكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عُمَان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثَقيف، وأهل الطّائف لمخالطتهم تّجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأنّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم . والذي نقل اللغة واللّسان العربي عن هؤلاء، وأثبتها في كتاب، فصيّرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[11].

وممّا يلاحظ أنّ الدارسين في ميدان علوم اللسان في عصرنا قد كشفوا كثيراً من الظواهر اللغوية التي ترجع إلى أصول لهجية، كما أنّ العلماء المتأخرين قد تساهلوا في الاستشهاد بلغات بعض القبائل التي نصّ الفارابي على رفضها، فقد اعتمد ابن مالك (672 هـ) في مؤلفاته على لغات لَخم وخُزاعة وقُضاعة. وقد اعترض أبو حيان النحوي الأندلسي (745 هـ) في شرحه للتسهيل على ابن مالك، وقال : «ليس ذلك من عادة أئمّة هذا الشأن»[12].

---

11 المزهر 211/1، 212 والاقتراح ، ص56.

12 الاقتراح ، ص57.

إن فصاحة اللّغة ترتبط بدرجة انعزالها، وابتعادها عن أماكن التأثر، كما ترتبط بالبادية، وأنّ بعض القبائل أفصح من بعض، بل وفي نطاق القبيلة الواحدة، تكون الفصاحة في بعضها الآخر (بعض كنانة وبعض طيء) وتستثنى لغة قريش من هذا الوضع فإنها أفصح اللّغات باتّفاق.

والسؤال الآتي هو كيف تكوّنت لغة قريش؟

كانت قريش تستقبل الوافدين إليها للتجارة والحج وأسواق الأدب، فتتخيّر من كلام هؤلاء وأشعار أولئك أحسن الأنماط وأقوى الأساليب، فيستساغ ويجري على ألسنة الناس، ويتخاطبون به، وهكذا يستمرّ الوضع في الانتقاء والاستعمال ،حتى يشتهر، ويكثر فيصير من لغة قريش. إذن هي مزيج من عدة لهجات، ولمكانة قريش في الجاهلية، وفي الإسلام صارت لغتها اللّغة الموحِّدة لجميع اللهجات العربية، واللسان الرسمي لكل العرب، وازدادت مكانتها في نفوسهم عندما نزل القرآن الكريم بها.